﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٦ ، ٧] .

المراد بالسيئة والحسنة :

تكلمنا فيما مضى عن موقف الكافرين الأول الذى سجله القرآن الكريم من إنكارهم للبعث والمعاد ، وبين أيدينا الآن موقفهم الثانى الذى سجله القرآن الكريم من الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ، تلك المقولة من مقولاتهم ، من نتائج الكفر الذى ينضح بهذه الرذائل والجرائم ، رذيلة تلو رذيلة ، وجريمة بعد جريمة ، أنهم يستعجلون رسول الله ﷺ بالسيئة قبل الحسنة ، والمراد بالسيئة هنا العقوبة تنزل عليهم من السماء ، فكلمة السيئة والحسنة تردان فى القرآن بمعنيين : السيئة بمعنى المعصية ، والحسنة بمعنى الطاعة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وكما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، وتردان بمعنيين آخرين ، الحسنة : النعمة تنزل بالإنسان تسره والسيئة النقمة والمصيبة والعقوبة تنزل بالإنسان فتسوءه مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذه مِنْ عِندِ اللهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : ٧٨] فالحسنة هنا بمعنى النعمة من عند الله والسيئة من شؤم محمد ، ويقول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] وهذا كثير فى القرآن : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] أى بالنعم والمصائب ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا .. ﴾ [الأعراف : ٩٥] .

فالمراد هنا : ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ ﴾ المصيبة والنعمة ، وحينما يستعجلون رسول الله ﷺ يستعجلونه العقوبة تنزل بهم ، وهذا للأسف من جناية الجاهلية على عقل الإنسان ، من جناية الوثنية أن يستعجل الإنسان ما يضره : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤] ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : ١ ، ٢ ، ٣] وهذا السؤال وهذا الاستعجال استعجال للعقاب وهو من غبائهم وجهلهم كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] أرأيتم خبلاً أشد من هذا الخبل ؟! كان المعقول أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا إليه ، أما أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فمعناه أنهم لا يريدون هذا الحق الذى جاء به محمد بن عبد الله حتى وإن كان حقًّا واضحًا صراحا ، فهذا هو الغباء ، وهذا هو الجهل الذى تجنيه الجاهلية الوثنية على الإنسان : أن يستعجل بعذاب الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوريكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر : ٦ ، ٧] بالملائكة وليس بالعذاب ، ولكن الملائكة تنزل فى وقت معين ، والله لا يعجل بعجلة الإنسان ، فالعقاب ينزل ولكنه ينزل فى أجل مسمى فى وقت معلوم قدره الله تعالى بمشيئته المرتبطة بحكمته ، وهو لا يعاجل الناس بالعقوبة وإن طلبوا هم هذه العقوبة وإن سألوها بغفلتهم وجهلهم وضلالهم ، بل يقيم عليهم الحجة بعد الحجة ويقطع عنهم التعلّة والأعذار ويرخى لهم العنان ، ثم بعد ذلك يكون عقابه الشديد الأليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ بالشر قبل الخير ، وكان المعقول أن يستعجلوا بالخيرات قبل الشرور ، بالنعم بدل المصائب ، ولكنهم فعلوا غير ذلك .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ قد مضت العقوبات الإلهية الواضحة التى نزلت بمن قبلهم من الأقوام الذين كذبوا بآيات الله وعصوا رسله ﴿ وَاتَّبَعُوا

أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود : ٥٩] فنزلت بهم العقوبات الإلٰهية التى أصبحت أمثالاً سائرة ، وهذا معنى المثلات .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ ما نزل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ، بالأقوام المشركة الكافرة ، نزل بهم عذاب الله : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : ١٠١] جاء أمر الله ليلاً أو نهاراً فجعل الله تلك القرى : ﴿ حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] قد خلت من قبلهم المثلات : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ألم تروا مدائن صالح وغيرها فى طريقكم إلى الشام وغيرها تمرون عليهم مصبحين وبالليل ، ألم تسيروا فى الأرض فتنظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرتموها وكانوا أكثر أموالاً وأولاداً وأشد قوة وأعز نفراً وكان هذا مصيرهم ، فكان يجب أن تعتبروا بمصاير هؤلاء : أن تنتفعوا بالتاريخ بدل أن تغمضوا أعينكم عن هذه الصفحات البينة من مصاير الأقوام المكذبين من قبلكم ، وكان ينبغى أن تأخذوا منها دروساً بليغة ، فالتاريخ واعظ ومعلم ولكن لمن ؟ لأولى الألباب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

ولكن هؤلاء ليسوا من أولى الألباب ، أفقدهم لبهم وأفقدهم عقلهم هذا الشرك الذى هو وكر للضلالات والخرافات يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ مصاير الأقوام الذين كانوا قبلهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠] وكل واحد من هؤلاء الأقوام كانوا أشد من هؤلاء،ليست قريش وليس عرب مكة ولا عرب الحجاز أشد مما كانت عليه عاد الذين استكبروا فى الأرض﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] وليسوا مثل ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلاَدِ ﴾

[الفجر:٧ ، ٨] وليسوا كمثل ثمود: ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] وليسوا كفرعون ذى الأوتاد وصاحب الأهرام . لن يكونوا مثل هؤلاء الأقوام ، لقد أوتوا أكثر مما أوتوا من وسائل القوة ، وأسباب الحضارة والعمران والمنعة والعزة ، ولكن هذا كله لم يغن عنهم من الله شيئًا ، حينما جاء أمر الله لم يغن عنهم العدد ولا العُدد ﴿ إِنّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] .

المغفرة والبطش من صفات الله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] هذا هو شأن الألوهية مغفرة من ناحية وعقاب شديد من ناحية أخرى ، ومن أجل هذه المغفرة أمهلهم وتركهم ، كان يقدر أن يعجلهم بعقوبته ، ولكنه أمهلهم وأعطاهم فرصة بعد فرصة ، عسى أن يهتدى الظالم ، وعسى أن يرشد الغاوى ، وعسى أن يستقيم المعوج .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ مع ظلمهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فى الوقت نفسه ، وهذا هو شأن الألوهية فى القرآن الكريم . ومن قرأ الإنجيل وجد فيه جانب المغفرة والرحمة غالبًا ، ومن قرأ التوراة وجد جانب العقوبة والسطوة والانتقام هوالغالب ،ولكن القرآن يصف لنا الله سبحانه وتعالى بمجامع الحمد والكمال ، المغفرة من ناحية والعقاب من ناحية ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] ، ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] ، ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣] هذا هو شأن الألوهية ، الله تعالى يتصف بالجلال والجمال ، ولذلك فبعض الصفات تجلى فيها الجلال والرهبة وأخرى تجلى فيها الجمال ، البسط والقبض ، أو كما جاء فى القرآن الجلال والإكرام :

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] وإن كانت صفة الرحمة أغلب ، ولهذا نجد فى القرآن أن المغفرة والرحمة من أسمائه وأوصافه ، وأن العقاب من أفعاله ، ولذلك يقول: ﴿ نَبِىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ولم يقل : وأنى أنا المعذِّب ، فليس من أسمائه الحسنى المعذب ، وإنما من أسمائه الغفور الرحيم ، فالرحمة أغلب ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ولكنه يذكر لنا الأمرين معًا لأن هذا هو الواقع ، هذه هى صفات الله عز وجل .

ومن ناحية أخرى هكذا تكون التربية ، التربية ترغيب وترهيب ، ترجية وتخويف ، ينبغى أن يكون الإنسان دائمًا بين الرجاء والخوف ، لا يغلب عليه الرجاء حتى يبلغ درجة الأمن من مكر الله ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] ولا يغلب عليه الخوف حتى يبلغ درجة اليأس من روح الله: ﴿ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] إنما يكون دائمًا راجيًا خائفًا ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] الرجاء يقوده ، والخوف يسوقه ، كما ذكر الإمام الغزالى أن النفس الإنسانية أشبه بالدابة الحرون ، تحرن الدابة على الإنسان أحيانًا فتحتاج إلى شىء من الشعير أو غيره يلوح لها به ، وأحيانا تحتاج إلى سوط فيضربها ، وهكذا الإنسان يحتاج أيضا إلى هذا الرجاء وإلى ذلك الخوف ومن هنا جاء الأمران معًا فى القرآن الكريم ، وجاءت صفات الله تعالى تمثل الأمرين ، وجاء ذكر الوعد والوعيد ، والجنة والنار ﴿ وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] وهكذا ينبغى أن يفهم القرآن الكريم .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ مع ظلمهم إن ربك لذو مغفرة لهم ولهذا لا يعاجلهم بعقوباته ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل : ٦١] لا يؤاخذ الله الناس بظلمهم بكل سيئاتهم ، قد يؤاخذهم ببعض ذنوبهم ، ببعض ما عملوا : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ واسم الرب من التربية ، وهذا من تربيته عز وجل ، يربى الناس بإظهار المغفرة الواسعة ، وبإظهار العقاب الشديد ، وقد جاء وصف الله تعالى بشدة العقاب فى القرآن فى أربعة عشر موضعاً ، وذلك أن العقاب الهين لا يؤثر فى المجرمين ، وخصوصاً إذا أصرُّوا على إجرامهم ، ولجوا فى طغيانهم فلابد حينئذ أن تكون العقوبة شديدة ، أما العقوبة الشكلية أو السطحية فهى لا تنفع مع هؤلاء الناس .

سنة الله فى الدنيا والآخرة هى إثابة المحسن وعقوبة المسىء ، الثواب والعقاب . على هذا قامت هذه الحياة الدنيا ، وعلى هذا تقوم الحياة الأخرى ، لا تستقيم الحياة بغير هذا كما قال ذو القرنين من قديم : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] أما أن يحسن المحسن ولا يكافأ على إحسانه ويسىء المسىء ولا يعاقب على إساءته فهذا مصدر من مصادر الشرور والآثام ، ولهذا إذا فعل الإنسان الخير وأحسن ، ولم يقل له أحد كلمة شكر ، لم يثب ماديًّا ولا أدبيًّا ، مع أن المثوبة الأدبية تكون مجزية أحياناً ، أن تقول له أحسنت ، أن تعترف له بالفضل ، إذا لم يحدث هذا وقوبل بالتنكُّر والإساءة فقد يؤدى هذا إلى أن يتنكّب الإنسان عن فعل الخيرات ، وعن أداء الحسنات ، كذلك إذا ظل المسىء يسىء ويبالغ فى الإساءة ، ويستمر فيها وينتقل من سيىء إلى أسوأ ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءاً ، ولا يعاقب على ذلك فمعنى هذا أننا نفتح الطريق للشر ليتمادى ويتفاقم ولهذا يقول الناس : « من أمن العقوبة أساء الأدب » .

سنة الله أن يثيب المحسنين ويعاقب المسيئين ، وخصوصاً إذا كانت الإساءة بالغة وكانت بعد إبلاغ الحجة وقطع العذر ، فلا تنزل العقوبة إلا بعد أن يتضح الأمر تماماً ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] حتى وإن طلبوا العقوبة لكنهم لا يعاقبون ، ولكن عندما تنزل العقوبة الإلهية فما أشدها وما أوجعها ! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

وكما قال عز وجل : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر : ٤٢] وفى هذه السورة يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ إنه العقاب الشديد الأليم الذى من شدته لا يقاوم ولا يفلت أحد منه ، حتى إذا ظن قوم أنهم يستطيعون بوسيلة من الوسائل أن ينجوا من عقاب الله ، فهيهات هيهات ، كما قال الله تعالى فى يهود بنى النضير : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[الحشر : ٢] وكما ظن ابن نوح ، الابن الكافر لنوح ﴿ قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مَنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[هود : ٤٣] عقاب الله شديد لا يقاوم ، وهذا عقاب الدنيا ، وهناك عقاب فى الآخرة : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت : ١٦] عذاب الآخرة أشد وأخزى وأنكى ، وعذاب الدنيا بالنسبة لعذاب الآخرة لا يكاد يساوى شيئًا ؛ لأنه عذاب ينتهى فى لحظات .

اقتراح الآيات الكونية :

ثم يأتى الموقف الثالث للكافرين الذى سجله القرآن الكريم فى الآية التالية فيقول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد : ٧] وقد تكررت عبارة ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هذه فى تلك السورة ثلاث مرات ، فى هذا الموضع وفى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[الرعد : ٢٧] والآية الثالثة :﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[الرعد : ٤٣] .

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا يؤذن بأن الذى أدى إلى هذه المقولة إنما هو كفرهم ، فالكفر شجرة خبيثة لا ينبت منها إلا خبيث ولا تثمر إلا خبيثًا ، فالكلمات الخبيثة من نتاج هذا الكفر ، فهو ينعى عليهم هذا الكفر الذى أدى إلى هذه المقولات السخيفة .

يقول الذين كفروا من مشركى مكة ومن مشركى العرب : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ولولا هذه تحضيضية كما يقول علماء النحو ، هلاَّ أنزل عليه آية من ربه ؟ يقصدون آية من آيات الخوارق الكونية الحسية ، كما أنزل على موسى وقد جعل الله من آياته العصا تنقلب حية ، واليد يخرجها من جيبه فتصبح بيضاء من غير سوء ، وكان موسى أسمر اللون ، والآيات التسع التى ذكرها الله تعالى فى القرآن (١) ، وكما أنزل على عيسى وقد جعل الله من آياته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، فهم يريدون أن تكون آية محمد صلى الله عليه وعلى الرسل من قبله وسلم من هذا النوع من الآيات ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون آية محمد الأولى والعظمى آية من نوع آخر : آية عقلية ، آية أدبية ، تلائم ما انتهى إليه هذا الطور من أطوار البشرية .

البشرية نضجت وبلغت أشدها ورشدها ، ولم يعد يناسبها فى هذه الرسالة العامة الخالدة التى ختمت بها الرسالات آيات من تلك الآيات المادية الحسية التى تنتهى بمجرد وقوعها ، ونحن الآن لا نعايش آية موسى ولا عيسى ، ولولا أن القرآن حدثنا عن العصا وعن اليد ما عرفنا عنهما شيئاً ، وكذلك آيات عيسى التى ذكرها القرآن ، وفى القرآن بعض آيات لعيسى ليست فى الإنجيل حتى أناجيل النصارى ليست فيها هذه الآيات ، مثل آية المائدة وغيرها ، فهذه الآيات انتهت بمجرد أن وقعت ورآها الذين شاهدوها أما من بعدهم فلم يروا شيئاً .

أما القرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد ﷺ فهو آية عقلية معنوية أدبية تبقى ما بقى الإنسان وما بقى الزمان وما بقى المكان ، لذلك فهى موجودة إلى

---

(١) قال ابن كثير المفسر « وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون وهى العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » عن ابن عباس ، ولكنه رجح ما روى عن ابن عباس وغيره « وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبى وقتادة هى يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » .

وقال : « وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى » انظر ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٦٦ .

الآن ، والتحـدى بها مستـمر ، لأن الأمة أمة خالدة ، والرسالة رسالة خالدة دائمة ، فلا يناسبها الآيات التى تنتهى بانتهاء وقتها ، ثم هى تخاطب العقل فهى من جنس نفس الرسالة .

ويضرب ابن رشد لنا المثل وغيره من المفكرين المسلمين قال : لو أن إنساناً جاء فقال : أنا طبيب فسألته : مادليلك على أنك طبيب ؟ فقال لك:دليلى على أنى طبيب أنى أطير فى الهواء ، فهذا شيء مدهش فعلاً ، لا تستطيع أن تفعل شيئاً أمامه ، ولكن لو قال لك دليلى على أنى طبيب : أنى أداوى المرضى فيشفون بإذن الله ، فأيهما أدل على الدعوى ؟ ، لا شك أن مداواة المرضى أدل على صدق الدعوى ، وهذا هو ما جاء به محمد ﷺ ، ما دليلك على أنك رسول ؟ هذا القرآن الذى تضمن هداية الله تبارك وتعالى للبشر ، يهدى للتى هى أقوم ، وتضمن من أنواع الإعجاز ما أعجز العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر سـور من مثله أو بسورة من مثله ، ولا زال يحمل الإعجاز إلى اليوم ، فدليله هو هذه الهداية ، أنه يهدى بالفعل .

القرآن آية وهـداية معاً : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] فمن أجل هذا لم يستجب القرآن لمقترحات هؤلاء الناس المتعنتين الذين يطلبون آية كونية خارقة ، فلو كانوا يعقلون لكفاهم الآيات الكونية التى عرضها القرآن فى أوائل هذه السورة المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، وكانت جديرة أن تقنعهم ولكنهم لا يعقلون ، لم تكفهم هذه الآيات وطلبوا آية واحدة من الآيات الخوارق ، ألا تدلكم هذه الآيات الضخمة على عظيم صنع الله تبارك وتعالى وعلى بديع حكمته ، ثم ألم يكفكم القرآن الكريم آية ؟! ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

تركوا هذا كله وطلبوا متعنتين آيات أخرى : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ٧] ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفـرقـان : ٨] ، ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِن الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ

تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[الإسراء:٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣] وليس من شأن الرسول أن يفجر الأرض ينابيع أو يقلب الجبال ذهبًا ، إنما جاء الرسول ﷺ ليغير من أنفس الناس ، ليحولوا هم الأرض إلى مروج وأنهار ، وليجعلوا من الجبال ذهبًا لو أرادوا ، فهذا شأن الإنسان ، وليس من شأن النبى ، وليس من شأن القرآن كما سيأتى في هذه السورة : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ أى : لكان هذا القرآن .

ظهور آيات كونية كثيرة على يد محمد ﷺ :

وليس معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يظهر آيات كونية خارقة على يد محمد ﷺ ، بل أظهر آيات وآيات ، ومن قرأ السنة النبوية الصحيحة ،والسيرة المحمدية الثابتة ، وجد عشرات ومئات من الآيات الكونية لرسول الله ﷺ تضمنتها كتب تسمى « دلائل النبوة » ألف فيها الإمام أبو نعيم الأصفهانى ، والإمام البيهقى ، وغيرهما من الأئمة ، وذكر منها شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » مجموعة ضخمة ملأت عشرات الصفحات من كتابه مما ثبت بصحيح السنة عن النبى ﷺ من الأشياء التى أعطاها الله تعالى له .

والقرآن يحوى من هذه الأشياء ،وللأسف هناك من الناس من يكذب بهذه الأشياء ، لكنهم إذا كذبوا بالحديث كله فما بالهم بالقرآن ؟! وفى القرآن الإسراء أليس آية كونية خارقة ؟ وهو ثابت بالقرآن ، وسميت باسمه سورة من كتاب الله بدأت بقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] وفى القرآن أيضًا المعراج كما أشارت إليه سورة النجم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦] ، وإنزال الملائكة فى بدر والخندق وحنين ، وإنزال جنود غير مرئية فى رحلة الهجرة : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ

وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] إلى آخر هذه الآيات المذكورة فى القرآن الكريم .

فالآيات أعطيت للنبى ﷺ ، ولكنها لم تكن إجابة لهؤلاء ، فالله قد عرج بمحمد فى السماء ، ولكن هذا لم يكن إجابة لطلب المتعنتين : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : ٩٣] ، وكان هذا لطفًا من الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة أيضًا ، لأن من سنن الله تبارك وتعالى أنه إذا طلب قوم آية من الآيات ، ثم أنزلها الله سبحانه وتعالى وفق ما طلبوا ، ثم قابلوها بالتكذيب والجحود ، فإن الله سبحانه وتعالى يعاجلهم بالعقوبة ، ويأخذهم أخذًا أليما شديدًا يستأصل شأفتهم ، وهذا ما فعله الله تعالى بالأقوام الذين طلبوا الآيات ثم كذبوا مثل قوم صالح قالوا : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] فآتاه الله الناقة آية فعقروها ، انبعث أشقاهم فعقر الناقة فأمهلهم الله قال : ﴿ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود:٦٥]ثم أخذتهم الصيحة﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلاَ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٧ ، ٦٨] .

الرد على مقترحى الآيات :

لم يرد الله سبحانه وتعالى أن يعامل هذه الأمة بتلك المعاملة فلم يستجب لهؤلاء القوم لأن الدين الجديد والرسالة الجديدة تريد أن ترقى بالناس ، لا تريد أن تأتى لهم بالآيات الخارقة التى تجبرهم جبرًا على الإيمان : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] بل يريد أن يأتى لهم بآية عقلية أدبية معنوية ، يتأملون فيها ويتدبرون فيها ، ليصلوا إلى الهداية بعقولهم لا بإخضاع أعناقهم من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى لم يرد أن يعاملهم معاملة الأمم الأخرى ، فقد أنزل الله الآيات على الأمم الأخرى ومع هذا لم يصدقوا ولم يؤمنوا : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء:٥٩] بل جحدوا وظلموا .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أنت لا تملك إلا الإنذار والإبلاغ :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ عليك الدعوة ، وأنت لا تملك أن تأتى بآية من الآيات فالكون ليس فى قبضتك بل فى قبضة صاحبه ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [غافر : ٧٨] إنما أنت منذر مبلغ ومعلم بالإنذار وهو الإعلام بما يسوء ومقابله التبشير : الإعلام بما يسر ، فيظهر أثره فى البشرة ، والرسول عليه الصلاة والسلام بشير ونذير ، والرسل كلهم مبشرون ومنذرون : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ، ولكن السياق يقتضى أحياناً أن يوصف الرسول ﷺ بصفة الإنذار فقط إذا كان المقام مقام تخويف ، وإذا كنا فى مواجهة قوم مكذبين معاندين مصرين يستهزئون ويطلبون العقوبات ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ وقبل ذلك أنكروا البعث وقالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ثم هم يقولون الآن : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فالمقام هنا يقتضى أن يذكر الرسول بصفة الإنذار لا بصفة التبشير ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ وفى آيات كثيرة : ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٤ ، هود : ٢٥ ، الحج : ٤٩ ، الشعراء ١١٥ وغيرها] وكثيراً ما يوصف الرسل بأنهم نذر : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ : ٤٤] ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] وذلك أن التكذيب غلب على التصديق ، وهذا مما يؤسف له ، والجحود والإصرار عليه غلب على الاهتداء ، والمعصية لرسل الله سبحانه وتعالى واتباع الجبابرة غلب على الأقوام ، فلهذا كان الوصف المناسب أن يوصف الرسل بأنهم منذرون ، وأن يخاطب ﷺ فى آيات شتى ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ولذلك قال هنا : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ فالمناسب لهؤلاء القوم أن يوصف الرسول ﷺ بصفة الإنذار ولذلك جاء فى الحديث « وإنى أنا النذير العريان » (١) .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ لا تملك أن تأتى بآية من آيات الله ، بحسبك أن تبلغ

---

(١) حديث طويل أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب الانتهاء عن المعاصى ، وكتاب الاعتصام ، كما أخرجه مسلم عن أبى موسى عن النبى ﷺ فى كتاب الفضائل وبعض لفظه « .. وإنى أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه .. إلى آخر الحديث » .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، كلمة « هاد » هل يفيد التنكير فيها تعظيم الشأن ؟ أى هاد عظيم الشأن ؟ وهو الله سبحانه وتعالى ، فما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، وأما الهداية فهى على الله عليك الدعوة وعلى الله الهداية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] هذا احتمال وارد رجحه الشيخ القاسمى وغيره ، أم أن المعنى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبى يهديهم بما يناسبهم ويأتى لهم من الآيات بما يلائمهم ؟ وأنت قد جئت لهؤلاء القوم بما يلائمهم ، جئت لهم بالآية الكبرى والمعجزة العظمى ، وهى القرآن الكريم . فهذا وارد أيضاً . فكل قوم لهم هاد يناسب زمانهم ، فموسى جاء بآية تلائم السحر الذى كان فاشياً فى أهل مصر، وعيسى جاء بآية تلائم الطب الذى كان فاشياً عند الرومان ، وأنت جئت بالآية التى تناسب العرب أهل البيان والفصاحة ، وتناسب الزمن الأخير الذى بلغته البشرية فى هذا الطور .

واحتمال آخر أن معناه : لكل قوم هاد أى كتاب يهديهم ، كما جاء فى سورة البقرة : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] هذا الكتاب يهدى الناس وخصوصاً فيما اختلفوا فيه ، ويكون على ذلك معنى هاد أى :كتاب يقودهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ، وأيا كان هذا الأمر ، فالمعنى : أن هؤلاء لن يجابوا إلى طلبهم واقتراحهم المتعنت بإنزال آية من الآيات الكونية الحسية ، وبحسبك أنت أن تنذرهم فهذه هى مهمتك ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ يهديهم إلى الصراط المستقيم .

* * *

﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[الرعد : ٨ – ١١]

هذه جولة من جولات السورة الكريمة فى حديثها عن رب العزة تبارك وتعالى وعن آياته فى هذا الكون التى تغنى عن كل آية يطلبها المشركون تعنتاً ، فهذا الكون مليء بآيات الله تعالى فى الآفاق وفى الأنفس .

وهنا تتحدث السورة عن العلم الإلهى ،وحديث القرآن عن الله تبارك وتعالى – كما ذكرنا وأكدنا – عن جلاله وجماله وكماله ، عن صفات الملك ، وعن صفات الحمد ، حديث لا نظير له ، ولا يوجد فى أى كتاب من كتب السماء ، وقد عشنا مع الجولة الأولى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴾ إلى آخرها .

شمول العلم الإلهى لكل شيء :

وهذه الجـولة : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ تتحدث فيها الآيات عن العلم الإلهى ، عن علم الله تبارك وتعالى بكل ما فى هذا الكون ومن فى هذا الكون،من الذرة إلى المجرة، فإن علم الله تعالى محيط بكل شيء فى هذا الكون:﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ من ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس : ٦١] ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وعلم الله تبارك وتعالى يمتاز عن علم البشر بعدة خصائص :

بالسعة والشمول : فهو يشمل الظاهر والمستور ، والمشهود والغائب ، ويشمل العالم العلوى والعالم السفلى ، ويشمل خفايا الضمائر ، وطوايا

السرائر ، وحركات الخواطر ، ومكنونات الصدور ، ويشمل ما يمكن أن نعرفه نحن وما لا يمكن أن نعرفه بحال من الأحـوال ، ما نسـتطيع بأداة من الأدوات أو وسيلة من الوسائل أن نصل إليه وما لا يمكن أن نصل إليه قط ، فهو علم شامل واسع : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف : ٨٩] ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] وسع علمه – من حيث السعة – كل شيء ورحمته وسعت كل حى .

ويمتاز علم الله أيضًا **بالدقة** فهو علم التفاصيل والجزئيات الذى لا يغيب معه شيء عن الله تبارك وتعالى .

ويمتاز كذلك **بالثبات** فعلمنا قد يتغير ، وقد ينقلب علمنا جهلاً ، فما كنا نظنه صوابا يتبين أنه خطأ ، وما كنا نعتقده مادة يتبين أنه طاقة ، وقديمًا اعتبر الفلاسفة الأرض مركز الكون ثم تبين أن الأرض هباءة صغيرة فى هذا الكـون ، أو هى جزء صغير من المجموعة الشمسية ،والمجموعة الشمسية جزء صغير من مجرة ضخمة ، والمجرة واحدة من ملايين المجرات . وكانوا يعتقدون أن العناصر التى يقوم عليها الكون أربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، ثم تبين أن هذه ليست عناصر وإنما هى مركبات ، وأن العناصر زادت عن المائة ، وهكذا تبين أن علم هؤلاء الفلاسفة الكبار أصبح جهلاً ، ولكن علم الله لا يتغير ، فهو يعلم الأشياء بعلم أزلى ثابت لا يطرأ عليه ما يغـيره فالأشياء تنكشف له على حقيقتها ؛ لأنه هو خالقها ، وهو الذى يريدها قبل أن تخلق على نمط معين ومقدار معين ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ومن هنا يحدثنا القرآن عن هذا العلم الإلهى الشامل الدقيق العميق الثابت الذى لا يتغير ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فى الحضـر أو فى البادية أو فى القرى أو فى أى مكان ، يعلم الله ما تحمل كل أنثى : أهو ذكر ؟ أم أنثى ؟ تام أم خديج ؟ يبقى إلى أن يولد أم ينزل سقطًا ؟ وإذا ولد أيكـون صحيحا أم سقيمًا ؟ ضعيفًا أم قويًا ؟ ذكيًّا أم غبيًّا ؟ سعيدًا أم شقيًّا ؟ يعلم حاضره ومستقبله ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وتغيض الأرحام أى تنقـص ، و « ما » كما يقول علماء النحو مصدرية أو موصولة أى يعلم حمل كل أنثى

وغيض الأرحام وازديادها أو يعلم الشيء الذى تحمله كل أنثى ، ولو أخذنا عبارة « كل أنثى » على عمومها لشملت الإنسان والحيوان والطيور والحشرات .

يعلم الله سبحانه وتعالى نوع الحمل والمرحلة التى هو فيها إن كان نطفة أو علقة أو مضغة ، مخلقة أو غير مخلقة ، أو استوى عظماً ، أو كسى العظم لحماً ، ويعلم أيكون طويلاً أو قصيراً ، سميناً أو هزيلاً و ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ هى المدة فيعلم كم يبقى فى بطن أمه ومتى ينزل ، أينزل بعد سبعة أشهر أم يبقى إلى التسعة ؟ أو يزيد عن ذلك أياماً أو أكثر ، وبعض المفسرين والفقهاء يقولون : إن الحمل قد يبقى سنتين فى بطن أمه ، وهو مذهب أبى حنيفة، وبعضهم قال : يبقى ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات كما فى مذهب الشافعية والحنابلة والمالكية حتى قيل إلى سبع سنوات ! وهذا أمر يمكن أن يناقش ، ويرد عليه .

والازدياد قد يعنى أن البطن فيها واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة والله يعلم ذلك كله ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ له مقدار معين فى كميته وكيفيته قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[الفرقان : ٢] فهذا الكون لا يسير جزافاً ولا يمضى اعتباطاً ،وإنما يجرى بمقادير قدرها الله عز وجل ، فكل شيء مصمم بعناية ، لهدف وغاية ، بمقدار لا يزيد ولا ينقص ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] كل شيء فى هذا الكون محدد منظم مقدر مصمم .

وبقيت حاشية :

فقد أثار بعض العلمانيين تعقيباً على بعض المفسرين الذين قالوا : إن الله هو الذى يعلم ما فى الأرحام إن كان ذكراً أو أنثى ، وأن هذا من مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله أن العلم بوسائط وأدوات وأجهزة استطاع الآن أن يعرف ذكورة الجنين من أنوثته فى وقت مبكر ، ونقول : إن معرفة الذكورة والأنوثة هى

جزء من مضمون العلم الإلٰهى ، لما فى الأرحام هذا العلم الذى يعلم أيحيا الجنين أم يموت ؟ أيبقى إلى أن يكتمل أم يولد قبل اكتماله ؟ أيكون ضعيفاً أم قويًّا ؟ أيكون ذكيًّا أو غبيًّا ؟ أيكون سعيداً أم شقيًّا ؟ أيؤمن أم يكفر ؟ بماذا يختم له أيكون من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فى أى أرض سيعيش ، وفى أى أرض سيموت ؟ فكل هذا يدخل فى العلم الإلٰهى ، أما الطبيب بأجهزته ومجساته وكاميرات تصويره ، فلا يعلم إلا مجرد الذكورة والأنوثة ، ولذلك يظل أن الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، ويعلم ما فى الأرحام ، وأن هذا من مفاتح الغيب التى ينفرد الله تعالى بعلمها ، وتظل هذه الحقيقة سليمة وصحيحة .

وحاشية أخرى :

حيث تكلم بعض الفقهاء عن مدة الحمل فذكروا فى : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أن الحمل قد يزداد فى بطن أمه إلى سنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو حتى سبع سنوات فى بعض روايات المالكية ، وهذا الكلام وإن كان موجوداً فى بعض كتب التفسير وكتب الفقه فليس عليه دليل صحيح صريح من الشرع ، ولا يوجد نص صحيح الثبوت صريح الدلالة يدل على هذا ، وإنما كل ما فى الأمر أن هناك أقوالاً نسبت إلى بعض النساء الصالحات من زوجات بعض السلف أنها حملت وبقى الحمل فى بطنها مدة كذا وكذا ، وقال الإمام مالك:إن امرأة ثابت بن عجلان وهو رجل صدق وامرأته امرأة صدق كان الحمل يبقى فى بطنها ثلاث سنين أو أربع سنين ، وورد عن السيدة عائشة أن الحمل لا يبقى فى بطن أمه أكثر من سنتين ولو بفركة مغزل ، وكل هذا ليس فيه دليل مرفوع صحيح ، ولذا ردّها الإمام ابن حزم وقال : إن هذه أقوال نساء عجائز لا يؤخذ بقولهن ، كيف يصير الحمل إلى هذه المدد الطوال والله تعالى يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] وأكد – ابن حزم – أن الحمل تسعة أشهر ، وذهب ابن عبد الحكم من المالكية إلى أن مدة الحمل سنة قمرية ، وأخذت بعض أحكام الأحوال الشخصية فى بعض البلاد الإسلامية بهذا

القول وإن كانت قد اعتبرته سنة شمسية واعتبرت السنة أقصى مدة للحمل ، أما الأقوال التى تذهب إلى إطالة المدة فهذه مردودة ؛ لأن المرأة ممكن أن تأتى بعد موت زوجها بعدة سنوات وتقول : إنها كانت حاملاً طوال تلك المدة ، ولكن حسب الاستقصاء والاستقراء لم يوجد حمل يطول إلى هذه المدة ، وكل ما فى الأمر : أن العلم الحديث اكتشف أن هناك ما يسمى الحمل الكاذب ، وفيه ترغب المرأة فى الحمل وتحرص عليه وتتمناه وتعيش فى ذلك من الناحية النفسية حتى يخيل إليها أنها حامل وتشعر بأعراض الحمل وتنتفخ بطنها ، ويصيبها الوحم والغثيان ،ويرى أهلها وجيرانها ذلك منها وهى صادقة ، ولكن حملها هو الكاذب وإن كانت أعراضه هى أعراض الحمل الصادق ولكن لا حقيقة له ، فإذا حدث هذا فى الزمن الماضى ثم وقع قدر الله وحملت المرأة حملاً صادقاً ووضعت بعد تسعة أشهر ، ظن الناس أن حملها استمر سنين طويلة بإضافة مدة الحمل الكاذب إلى مدة الحمل الصادق ، فالمرأة فى هذه الحالة صادقة وزوجها الذى رآها صادق ، وجيرانها الذين رأوها صادقون ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون بالحمل الكاذب ، وهذا ما يجعلنا نؤكد تلك القاعدة الذهبية العظيمة التى تقول : « إن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف » ، فقد عرفنا فى عصرنا ما لم يكن يعرفه الإمام مالك ولا الأئمة السابقون من الحمل الكاذب وأعراضه .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ الغيب : ما غاب عن الحس ، والشهادة : ما يشهده الحس ، فهو مشهود لنا ومنظور . هناك عالم منظور وعالم غير منظور ، عالم مشهور وعالم غير مشهود ، فغير المشهود هو الغائب عنا ، وقد يكون غائبًا عنا وهو موجود الآن مثل العرش والكرسى واللوح والملائكة والجن ، وقد يكون غائبًا عنا ؛ لأنه لم يحدث بعد كالذى يأتى من الحياة البرزخية فى القبر وما يأتى فى يوم القيامة ، فكل هذا من الغيب ، والله سبحانه وتعالى يعلم هذا الغيب ويعلم الشهادة والغيب بمعنى الغائب مصدر بمعنى اسم الفاعل ، والشهادة بمعنى المشهود وهى بمعنى اسم المفعول ، فالغائب والمشهود يعلمه الله تبارك وتعالى .

ونحن لا نعلم الغيب لأن حواسنا محدودة وقوانا محدودة ، بل إننا لا نعلم كثيراً من عالمنا المادى ،والعلم الحديث يقول : إننا لا نعلم من أجزاء الكون المادى الذى نعيشُ فيه إلا ثلاثة فى المائة ٣ ٪ فقط وسبعة وتسعون ٩٧٪ تغيب عنا يسمونها الأعماق السوداء فى هذا الكون ، ولذا فلا نطمع أن نعلم الأشياء الغائبة عنا من العالم والكون غير المنظور وغير المحسّ وغير المشهود ، إنما الذى يعلم ذلك هو ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ العظيم الشأن ، المتعالى على خلقه والمنزه عن كل نقص ، المستعلى على جميع خلقه بكمال ذاته وصفاته ، والكبير بإطلاق هو الله عز وجل ، قد يوجد فى الكون من نقول عنه : إنه كبير ، لكن كبره هذا نسبى ، إنما الكبير الذى ليس هناك أكبر منه هو الله تبارك وتعالى ، فهو الكبير بإطلاق ، وهو المتعالى بإطلاق ، ومن أسمائه (المتعال) وليس من أسمائه (العال) الذى يتسمى به بعض الناس « عبد العال » والصواب أن يسمى « عبد المتعال » أو يسمى « عبد العلى » فالله سبحانه وتعالى موصوف بالعلو ، ولكن من أسمائه العلى والمتعال [1] .

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ يستوى فى علم الله تبارك وتعالى : من أسر القول مع صاحبه وصديقه لا يريد أن يسمعه أحد – فإن للحيطان آذاناً كما يقولون – ومن جهر به ، فالأمران سواء ﴿ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ اجهَرْ بالقول أو اهمسْ به ، تكلم فى أذن صاحبك بصوت خافت ، أو أضمره فى نفسك ، فالله يسمع ويعلم هذا كله .

---

(١) ورد اسم « الكبير » كاسم من أسماء الله تعالى فى القرآن كله ثمانى مرات وورد اسم « المتكبر » مرة واحدة فى القرآن كله ، وورد اسم « العلى » معرفًا بالألف واللام ست مرات وورد اسم « المتعال » فى القرآن كله مرة واحدة هى هذه التى في الرعد ، انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ ٢ ص ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٧٨٩ .

كان بعض المشركين يقول لبعض حينما ينزل القرآن ، فيكشف عن مؤامراتهم ، ويفضح أسرارهم ، ويهتك أستارهم : لا تتحدثوا بصوت جهير حتى لا يسمعكم إلٰه محمد ، ولكن تحدثوا بصوت خافت هامس ، فنزل القرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] إذا كان يعلم ما بداخل الصدر ، وما هو مكنون بالسرائر ، أفلا يعلم إذا خرج ما بالداخل هذا بالصوت حتى وإن كان مهموساً أو خافتاً ؟!! لا شك أنه سبحانه يعلم﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] .

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ المستخفى بالليل الذى يريد أن يخفى نفسه ويطلب الخفاء من الناس أو من الشرطة أو من طلاب الديون ، وقد يفلح فى هذا فيختفى عن أعين العباد ، ولكنه أبداً لن يستخفى عن عين الله عز وجل ، فإنه بالمرصاد لكل أحد حيث كان ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُم ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ من يستتر بظلمة الليل ويستتر بستر البيت الذى يكون فيه وجدرانه ، ومن هو سارب بالنهار أى ظاهر بالنهار ، سائر فى سربه وفى طريقته ، يستويان فى علم الله فعلمه سبحانه وتعالى مستوعب شامل يلاحق الإنسان فى كل مكان ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] لا تخفى عنه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام فى دعائه : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] هذا ما يقرره القرآن الكريم ولا يوجد تقرير للعلم الإلٰهى بهذه الصيغة وبهذه الصورة الواضحة الدقيقة العميقة إلا فى القرآن الكريم .

ومن أسف أن هناك من الفلاسفة المؤلِّهين الذين اعترفوا بأن هناك ألوهية : من لم يستطيعوا أن يصلوا إلى إدراك هذه العظمة الإلٰهية ، وأشهر الفلسفات فى ذلك هي فلسفة اليونان القديمة التى ترجمها المسلمون فى أوائل العصر العباسى ، تلك الفلسفة لم تستطع أن تدرك المجد الإلٰهى ، وأشهر الفلاسفة اليونانيين على الإطلاق الفيلسوف المعروف (أرسطو) الذى قال عنه العرب

الذين ترجموا كتب الفلسفة إلى العربية : إنه المعلم الأول ! والحق أن المعلم الأول هو محمد ﷺ .

يقول هذا الفيلسوف عن الله – الذى يسميه العلّة الأولى أو المحرك الأول – إنه لا يعلم عن الكون شيئًا ، ويرى أن مما يعيب هذا الإلهُ أن يعلم ما فى هذا الكون ، وما فى هذا العالم : عالم الكون والفساد ، ولذا فهو لا يعلم عنه شيئًا ، ولا يعلم إلا ذاته الكاملة ، أما هذا الكون الناقص فهو لا يدبر فيه أمرًا ، ولا يحرك فيه ساكنًا ، وهذا هو شأن الإله عند هذا الفيلسوف الكبير أرسطو .

ولذلك فإن بعض مؤرخى الفلسفة فى العصر الحديث – وهو الأمريكى ول ديورانت – يقول فى كتابه : « مباهج الفلسفة » « يا لإله أرسطو من إله مسكين ! إنه أشبه بملك الإنجليز يملك ولا يحكم !! » ، فأين هذا من الإله فى القرآن الكريم ؟ (١) .

وللأسف أن هذه الفكرة عن العلم الإلهى تسربت أيضًا إلى الفلاسفة الإسلاميين – كما يسمونهم – الذين تأثروا بفلسفة أرسطو مثل الكندى والفارابى وابن سيناء . فقالوا : إن الله لا يعلم الجزئيات فى هذا العالم ، وبذلك لم يأخذوا بكلام أرسطو كله ، ولم يرفضوه كله : حيث أثبتوا العلم لله عز وجل بما فى الكون ، ولكنهم نفوا عنه علم الجزئيات التى تحدث فى هذا الكون ، وهذا مناقض لما صرح به القرآن فى عشرات الآيات أن كل ما فى الكون يعلمه الله عز وجل حتى ما تحمله كل أنثى ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ ، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ولأن قولهم هذا مناقض لما فى القرآن اعتبر فقهاء المسلمين هذا القول كفرًا .

والأعجب من ذلك ما زاده بعض الفلاسفة عن أرسطو ، فقد قال أفلوطين – الذى تنسب إليه المدرسة الفلسفية المسماه الأفلاطونية الحديثة : إن الله لا يعلم

---

(١) انظر فى ذلك كتاب فضيلة الشيخ القرضاوى « الإيمان والحياة » إصدار مكتبة وهبة من ص ٢٠ : ٢٧ .

حتى ذاته !! كما نقل ذلك الأستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه « الله » فيا عجبا أن تكون هذه هى منزلة الإلّه عندهم ! أما فى الإسلام وفى القرآن ، فالله هو المحيط بكل ما فى هذا الكون ، وهو المدبر لكل ما فيه ،ولهذا يسأله الناس ويدعونه ، فإذا لم يكن يعلم شيئًا فلماذا تلجأ إليه الفطر البشرية من قديم إذا نزلت بهم شدة ، وهو الذى – تبعًا لهذا الرأى – لا يعلم عن البشر إن كانوا فى سرّاء أو فى ضرّاء؟ وما معنى أن يدعو الإنسان من لا يعلم عنه – أى عن الإنسان – شيئًا – ؟ لا معنى لذلك إلا أن يكون جهلاً بالعلم الإلهى .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ والضمير فى « له » يعود على الإنسان المذكور فى قوله : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ هذا المسر أو الجاهر ، المستخفى أو السارب الظاهر ، له معقبات ، أى ملائكة تتعاقب وتتوارد وتتناوب عليه ، وكلّها الله به ، فهى من جنود الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] ، والملائكة مخلوقات نورانية من جملة عالم الغيب بثّها الله فى هذا الكون ، وجعل لها وظائف منها : الحفظ لهذا الإنسان ، وكتابة أعماله خيرها وشرّها، حسنها وقبيحها ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ، ١١ ، ١٢] وكما قال أيضًا : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] هؤلاء الحفظة الذين يسجلون على الإنسان أعماله كلّها حسناته وسيئاته .

وللتسجيل الإلهى قلم يسجل بوساطة هؤلاء الحفظة الكاتبين كل شىء فى صحائف لا تبلى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ، ١٨] ، وهؤلاء الحفظة يتعاقبون : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ عقّب الشىء أى أتى عقبه بلا مهلة ولا فاصل ، وأصل العقب مؤخر الرّجل ، فعقبه أى جاء فى عقبه كأنه يكاد يلمس عقبه ويطؤه ، وفى علم النحو يقولون : الفاء للتعقيب والترتيب بلا مهلة:﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] ويقال : جاء فلان ففلان ، أما إذا كان هناك مهلة فالمستعمل « ثم » فيقال : فلان ثم فلان .

فهؤلاء الحفظة يتعاقبون بحيث لا توجد فترة بلا حراس ولا حفظة . وقد جاء فى الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » (١) أى أن مناوباتهم تتغير عند صلاتى الفجر والعصر ، فيشهدون بذلك للأمة « تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

الله تعالى جعل هؤلاء الحفظة – من ملائكته الكرام المقربين – على الإنسان ،تكريماً للإنسان من ناحية ، حيث جعلهم وهم الذين فطرهم الله تعالى على طاعته ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] جعلهم فى خدمة الإنسان وفى حفظه وحراسته ، فأى تكريم للإنسان أعظم من هذا ؟! ومن ناحية أخرى إشعار الإنسان أنه ليس سائباً يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ،وأن أعماله لا تنتهى بمجرد عملها ،ولكنها محفوظة مسجلة له أو عليه ، فليحذر أن يرى فى صحيفته غداً ما يسوؤه .

حينما يكون الإنسان فى مكان يعلم أن فيه أجهزة تنصّت عليه ، فإنه يحترس من الكلمة يقولها ، أو إن كان هناك (كاميرا) خفية تصور حركاته ، فماذا يصنع ؟ لا شك أنه يتحرى أن يكون حريصاً . وكفى بهذا رادعاً للإنسان : أن يقترف المنكرات أو يعب من الشهوات ، أو يسير فى ركاب الشيطان ، بل لابد أن يحاسب نفسه وأن يقف مع نفسه يراقبها ويؤدبها ، ويقول لها : كيف تفعلين كذا ، وكيف تتركين كذا ؟ ولماذا ؟ وهذا شأن صاحب (النفس اللوامة) أو ما يسمونه فى عصرنا (الضمير الحى) فهؤلاء الحفظة

---

(١) رواه البخارى واللفظ له من حديث أبى هريرة ... فى كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ، ورواه أيضاً فى كتاب التوحيد ، كما رواه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، والنسائى فى الصلاة ومالك فى الموطأ كتاب السفر ، وأحمد فى مسنده .

وكلّهم الله لمثل هذه المعانى . ولهذا نرى سيدنا عمر بن الخطاب حينما بعث سعد بن أبى وقاص قائده على جند المسلمين فى معركة القادسية وأوصاه بتقوى الله عز وجل وقال له : إن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وأوصاه بوصية بليغة عظيمة . وكان مما قال : « واعلموا أن عليكم حفظة فى سيركم يكتبون كل مالكم أو عليكم فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله » .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ و « مِنْ » فى قوله ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ يقولون عنها فى علم النحو : لابتداء الغاية أى معقبات من أمر الله ومن قدر الله ، والله هو الذى قدر هذا ، فليست خارجة عن أمر الله ولا عن قدره إنما هى حسب النظام الذى أودعه الله تعالى فى هذا الكون : ﴿ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ هذه إشارة إلى أنها تحيط بهم من كل الجوانب . ويقول بعضهم : إن « مِنْ » هنا للتعليل ؛ لأن « من » تأتى أحيانًا فى القرآن وفى اللغة العربية للتعليل كما فى قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح : ٢٥] أى بسبب خطيئاتهم فـ ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ – على هذا التفسير – أى بسبب أمر الله عز وجل . وليس المعنى : يحفظونه من قدر الله ، فلا يستطيع أحد أن يحفظ أحدًا من قدر الله ؛ لأن قدر الله جار على الناس مهما كان حالهم ، ولا رادَّ لقدره عز وجل .

والتأنيث فى المعقبات ليس لفظيًّا ، وإنما هو يعنى : جماعات معقبات ، فالملائكة لا توصف بأنوثة ولا بذكورة ، ولكن من ناحية الضمائر وغيرها تجرى مجرى الذكور ، فيقال : فعلوا كذا وكذا ،ولكنهم ليسوا إناثًا كما قال المشركون الذين جعلوا ﴿ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

بماذا يغير الله ما بالأقوام والأمم ؟ :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] هذه المعقبات وهؤلاء الحفّاظ والحرّاس ، لا يغنون عن الإنسان من أمر الله شيئًا إذا صنع ما يقتضى عقوبته ، بل تنزل به العقوبة الإلهية ؛ لأن هؤلاء لا يردّون سنن الله ،

بل هم يمضون مع سنن الله ويعملون فى دائرتها ، فإذا غيّر قوم ما بأنفسهم من الطاعة إلى المعصية ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ،ومن الهدى إلى الضلال ، ومن الرشد إلى الغىّ ، ومن العدل إلى الظلم ، ومن الإيمان إلي الكفر ، ومن التوحيد إلى الشرك ، فإن الله يغير ما بهم.وهذه سنة من سنن الله تبارك وتعالى ، فإذا غيَّر الناس ما بأنفسهم غيَّر الله تعالى ما بهم ، كما ذكر الله هنا ، وفى سورة الأنفال أيضاً: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣ ، ٥٤] فبالذنوب وبالظلم وبالانحراف وتغيير ما بالأنفس ينزل الله نقَمه ، ويبدل النعمة إلى نقمة ، ويبدل العافية إلى بلاء، ويحول السرَّاء إلى ضرَّاء والنعماء إلى بأساء ، والغنى إلى فقر ، واليسر إلى عسر ، والوحدة إلى تفرق ، والنصر إلى هزيمة . وهكذا .

هل تشمل الآية التغير من الشر إلى الخير ؟:

ويبرز هنا سؤال : هل التغيير فى الآية متصور على التغيير من الحسن إلى السيىء،ومن الطاعة إلى المعصية ،ومن الخير إلى الشر ؟ أم أنه يشمل العكس؟.

نقول : إن السياق الذى وردت فيه الآية يدل على أنهم تحوَّلوا من الخير إلى الشر ، ومن الحسن إلى القبيح ، وهذا صريح آية الأنفال.التى سبقت ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] إذا غيروا حال الخير إلى شر ، أو الحسن إلي قبيح ، أو الهدى إلىٰ ضلال ، غيَّر الله ما بهم وأنزل بهم عقوبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] وكما ذكر لنا القرآن أحوال أمم كثيرة من الأمم السابقة، أخذهم الله بذنوبهم وبتكذيبهم وبعصيانهم ، جزاء ما صنعوا مثل سبأ ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبإ : ١٧] .

وبعض العلماء يقول : إن الآية لا تفيد إلا هذا ، وقالوا : إن الأصل فيما هو بالأنفس (الخير) فالله قد فطر الأنفس على الخير ، وذلك قول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة .. » [1] فإذا غيَّر الناس ما بأنفسهم أى غيَّروا الفطرة ومسخوها ، فتحولوا من الخير إلى الشر ومن الهداية إلى الضلال ، غيَّر الله ما بهم ، وهذا واضح فى آية سورة الأنفال .

أما هذه الآية فالواقع أنها تشمل هذا وهو ما يدل عليه السياق ،ولكن لفظ الآية عام : يشمل التحول من الخير إلى الشر ، أو من الشر إلى الخير ، ومن الحسن إلى القبيح ، أو من القبيح إلى الحسن ، ومن الاستقامة إلى الاعوجاج ، أو من الاعوجاج إلى الاستقامة . فالله يقول : ﴿ مَا بِقَوْمٍ ﴾ وكلمة « ما » لفظ من ألفاظ العموم كما يقول علماء الأصول ، فهو يشمل ما بأنفسهم سواء كان من الخير أم من الشر ، و « ما بقوم » سواء كانوا فى حالة النعمة أم فى حالة المصيبة . ومعنى هذا : أن الآية تشمل أيضاً أنه إذا كان هناك قوم فى حالة من الانحراف والتظالم والوقوع فى المنكرات ، ونزلت بهم المصائب ، وأحاطت بهم الكروب والخطوب ، وسلط عليهم أعداؤهم ،وجرى عليهم ما جرى من الهزائم والنكسات والوكسات ، ثم غير هؤلاء القوم ما بأنفسهم ، فتحولوا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ومن الغى إلى الرشد ، ومن الشر إلى الخير ، فإن الله يغير ما بهم ويصلح حالهم ، ويحوِّل حالهم إلى أحسن حال ، فالآية إذن تشمل الجانبين معاً : التحول إلى الحسن ، والتحول إلى السيىء ، وهذا ما يفيده العموم فى هذه الآية من هذه السورة .

وأما ما جاء فى الحديث من أن كل مولود يولد على (الفطرة) وهو يؤيد ما جاء فى القرآن ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رواها البخارى فى كتاب الجنائز . باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وغيره من الأبواب وفى كتاب التفسير وكتاب القدر ، ورواها مسلم فى كتاب القدر من صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه وفى لفظه « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ... » وروى مثله أبو داود والترمذى ومالك وأحمد بن حنبل فى المسند والطيالسى والواقدى .

عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] فالذى يبدو لنا : أن هذا فى التوحيـد والاعتقاد والإيمان بالله تعالى ، ففطرة الله فى الأنفس : التوجه إلى الإيمان والتوحيد ، لا إلى الإلحاد والشرك .

أما ما يتعلق بالسلوك، فالذى يظهرلنا من القرآن : أن الله سبحانه فطر الأنفس على الاستعداد للخير وللشر ، أو للتقـوى والفجور ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ – ١٠] . وربما كان استعداد النفس للفجور أسبق من استعدادها للتقوى ، بدليل تقديم (فجورها) على (تقواها) . وقد يؤيد هذا مثل قـــوله تعالـــى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَرَبِّه لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ﴿ وَكَانَ الإِنسَانَ عَجُولاً ﴾ [الإسراء:١١] الخ هذه الآيات التى تشير إلى ما جبل عليه الإنسان – إذا ترك لنفسه – من ظلم وجهل وكنود وكفران بنعمة ربه ، وعجلة فى أمره . لهذا كان عليه أن يبذل جهده حتى يزكى نفسه ويرتقى بها ، ولا يعمل على تدسيتها وتدنيسها . فهو الذى حُمّل مسؤولية نفسه . فإما أن يعلو بها إلى أفق الملائكة ،وإما أن يهبط بها إلى حضيض الأنعام .

وهذه مسؤولية الأفراد ، كل فرد على حدة ، وهى مسئولية الأقوام ، والجماعات كذلك ، مسؤولية تضامنية . فلا تظن جماعة ما أن الله ينزل عليها التغيير لحالها من السماء ، كما أنزل المن والسلوى ، بل إن التغيير الإلهى لحال البشر ، لابد أن يسبقه تغيير داخلى من جانب البشر أنفسهم ، أى أن التغييرالإلهى مرتب على التغيير البشرى ، ترتب المسببات على أسبابها التى وضعها الله ،والتى شرعها الله تعالى .

وهذا تكريم من الله تعالى للإنسان : أن جعل أمره بيده ،وأن قدره الأعلى يعمل من خلال حركة الإنسان وحركة المجتمعات ، فإذا تحركت المجتمعات من داخلها ، وغيرَّت ما بأنفسها ، فإن القدر الإلهى يغير ما بها ، ويحوّلها من حال إلى حال .

ولهذا نرى محاولات التغيير من السطح ومن الظاهر ، مثل مجرد تغيير القوانين واللوائح والأشكال ، لا تجدى كثيرا ، إذا لم يتغير ما بأنفس الناس .

قاعدة اجتماعية مهمة :

وهنا نجد أن القرآن الكريم وضع قاعدة من القواعد الاجتماعية المهمة ،وسنة من سنن التغيير الاجتماعى ، وقانوناً من القوانين التى وضعها الله فى هذا الكون ؛ لأن القرآن جاء يغرس فى عقول المسلمين وفى أنفسهم : أن هذا الكون يسير على سنن ثابتة ، سنن كونية ، وسنن اجتماعية لا تتبدل ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾[فاطر : ٤٣] . فلابد أن تَراعَى هذه السنن ، فهى سنن لا تحابى أحداً ،ولا تتحيز إلى أحد ، أو ضد أحد ، تعمل مع المسلمين كما تعمل مع الكافرين ، مع أهل التوحيد ومع أهل الشرك ، من جدّ وجد ، ومن زرع حصد، من أى ملة كان ، فالكافر الذى يزرع يحصد ، والمسلم الذى يتكاسل ولا يزرع لا يحصد ،والذى يتزوج امرأة ولوداً ويأخذ بأسباب الإنجاب يولد له ، والذى لا يتزوج ولا يأخذ بأسباب الولادة ويدعو الله أن يرزقه الذرية ، فأنى يستجاب لهذا ؟! .

الماركسيون والتغيير :

ومن هذه السنن : تلك السنة الاجتماعية التى تنص علي أن تغيير المجتمعات والأقوام لا يكون إلا بعد هذا التغيير النفسى العميق ، الذى يسبق أى ثورة اجتماعية ، ويسبق أى تغيير سياسى أو اقتصادى ، على خلاف ما قاله الماركسيون الشيوعيون الذين كانوا يقولون : إن التغيّر الاجتماعى هو وليد التغيّر الاقتصادى ، يقولون : غيّر الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغيّر التاريخ .

ونحن المسلمين - حسب النظرية القرآنية أو الفكرة القرآنية أو السنة القرآنية هذه - نخالف هؤلاء ونقول : غيّر نفسك يتغير التاريخ ، وبالتعبير القرآنى : غيّر ما بنفسك أو غيّر ما بأنفس الناس يتغير التاريخ .

ولهذا نرى كيف فعل النبى ﷺ حينما بعثه الله تعالى فى الأميين رسولاً ، وكانوا فى ضلال مبين ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فسدت عقائدهم ،

وفسدت أخلاقهم ، وفسدت أنظمتهم ، وفسدت تقاليدهم ، وهنا بدأ ﷺ بتغيير الأنفس ؛ ليصبّ غى عروق القوم دمًّا جديداً ، تتغير به أنفسهم وعقولهم من الوثنية إلى التوحيد ، وتتغير نظرتهم إلى الله تعالى ، وإلى الكون ، وإلى الحياة ، وإلي الإنسان ، وإلى الدين ، وإلى الدنيا ، فصنعهم صناعة جديدة ، وأنشأهم خلقاً آخر حتى رأينا عمر بن الخطاب الجاهلى يختلف تمامًا عن عمر بن الخطاب الإسلامى ، ورأينا خنساء الجاهلية غير خنساء الإسلام ، ولذلك فأصعب التغييرات هو تغيير الإنسان ، فأنت تستطيع أن تغير البيئة المادية كأن تنشىء بحيرة صناعية ، وتحول الصحراء إلى أرض خضراء ، وتعلى البنيان حتى يناطح السحاب ، لكنك مع هذا لا تستطيع أن تغير الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقاد من أذنه كما تقاد البهيمة العجماء ولكنه يقاد من داخله ، ويقاد من نفسه التى بين جنبيه ، وأى تغيير اجتماعى لابد أن يبدأ بتغيير ما بالأنفس ، تغيير العقائد والأفكار والمفاهيم والإخلاق والقيم فهذا هو الذى يغير المجتمعات والأمم وهذا ما صنعه الرسول الكريم ﷺ بالعرب : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين بعض الاعتراضات فقالوا : إن العقوبة تنزل أحياناً بالناس ومنهم من لم يصنع شيئًا ولم يرتكب ذنبًا ، والقرآن يقول : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] والحديث يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (١) وهذا الاعتراض ليس فى محله ؛لأن العبرة بمجموع القوم ، هل يغلب عليهم الخير أو يغلب عليهم الشر ؟ هل يغلب عليهم المعروف أو يغلب عليهم المنكر ؟ فإذا كان المعروف هو الغالب والمنكر يوجد ، ولكنه ضعيف لا

---

(١) رواه أبو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه وآخره : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه .. » وأوله « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول .. إلى آخر الحديث » كما رواه النسائي وأحمد فى المسند ، قال الإمام النووى (رحمه الله) : أسانيده صحيحة .

يستطيع أن يستعلن ، ولا يستطيع أن يتمطى برقبته ، ولا يستطيع أن يرفع رأسه ، فلا يوجد إشكال ،ولكن المشكل حينما يوجد المنكر ويستعلى ويستعلن ويتبجح ولا يوجد من يوقفه عند حده ، فهنا تنزل العقوبة ؛ لأن الناس رأوا المنكر فلم يغيّروه ، ورأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، ولم يقولوا للظالم : يا ظالم ، بل إنهم فى بعض الأحيان يقولون للظالم : ما أعظمك فأنت المنقذ العظيم ، وأنت البطل العظيم ، وأنت المحرر !! وهذه هى المصيبة ، والحديث يقول : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودّع منها » (١) فحينما تنزل العقوبة ، فإنها لم تنزل جزافًا ولا ظلمًا ، إنما نزلت ؛ لأن المجتمع يستحق هذا فى مجموعه ، وإن كان فيه الخيّرون ، ولكنهم هنا يؤخذون فيمن يؤخذ ، ثم يبعثون على نياتهم يوم القيامة ، ولذلك نرى الرسول ﷺ حينما سئل : أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم ، قالوا : لِمَ ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله ، وفى بعض الروايات : إذا كثر الخَبَثَ أو كثر الخُبُث (٢) فعندما يكثر الخبث على الطيب تنزل النقمة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ كتب أحد العلماء وهو الأستاذ جودت سعيد من علماء الشام -- كتب كتابًا تحت هذا العنوان « حتى يغَيروا ما بأنفسهم » تكلم فيه عن هذه السنة وهو كتاب جيد ينبغى أن يقرأ ، وقد نقلت عنه فى كتابى « الصحوة بين الجحود والتطرف » علاَّمة الجزائر ، والمصلح الإسلامى المعروف : الشيخ عبد الحميد بن باديس جعل شعار جمعية العلماء فى الجزائر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٩٠ .

(٢) الحديث عن أم المؤمنين أمِّ الحكم زينب بنت جحش رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها فزعًا يقول : « لا إله إلا الله ! ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها قالت زينب بنت جحش : فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء والفتن والمناقب ، ومسلم فى الفتن والترمذى فى الفتن وابن ماجه ومالك ، وأحمد فى المسند .

بِأَنفُسِهِمِ ﴾ ولا زالت ملتقيات الفكر الإسلامى فى الجزائر تلتقى تحت هذا الشعار ، فهو شعار فى غاية الأهمية .

والنقم حينما تنزل تنزل على (القوم) لا على أفراد ، والفرد يمكن أن يبتلى فينزل به العقاب ، وإن لم يفعل شيئًا ، كما ذكر الله تعالى فى سورة البروج ، أولئك المؤمنين الذين خُدّت لهم الأخاديد ، وشقت لهم الشقوق ، ووضعت فيها النار ، وألقوا فيها ولا ذنب لهم : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] فالفرد قد يبتلى ويمرض دون ذنب منه ، ولكن الجماعة والقوم والأمة والمجتمع هؤلاء لا تنزل بهم العقوبة إلا بمعصية وذنوب ، وهذا ما قرره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فأحسن التقرير .

سنة الله فى المجتمعات أنها تنمو وتزدهر وتتقدم وتقوى وتنتصر بالمعانى الإيمانية والأخلاقية ، وبالعلم وبالعمل حسب السنن الإلهية ، وتذبل المجتمعات وتذوى وتمرض ، وقد تموت نهائيًّا ، وتسقط وتزول ، كما زالت أمم كثيرة وانتهت من خريطة العالم ، بذنوبهم وعصيانهم وكفرهم بأنعم الله عزّ وجلّ . ومن هذه الذنوب : غفلتهم عن سنن الله تعالى ، وإطراحهم لشبكة الأسباب والمسببات .

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يغنى عنهم الحفظة الذين يحرسونهم فى هذه الحالة ، ولا يغنى عنهم أحد ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ يلى أمورهم ويدفع عنهم وينصرهم ، كما قال الله تعالى حينما أخذ قارون وخسف به وبداره الأرض :﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص:٨١]وهكذا حينما يأخذ الله الظلمة أخذه الأليم الشديد كما قال الرسول ﷺ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » (١) . ثم تلا

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وتمامه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ بخ تفسير سورة ١١ ، ٥ ، م فى كتاب البر ٦٣ ، كما رواه ابن ماجه فى الفتن ٣٣ .

الآية الكريمة من سورة هود ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ إذا أراد بهم ما يسوءهم أو يحزنهم من فقر أو مرض أو مجاعة أو بلاء ، أو تسليط عدو ، أو إنزال كوارث دنيوية كالزلازل والبراكين المتفجرة ، والفيضانات المغرقة ، والجدب والقحط ، فلا يردّه أحد ، وهؤلاء هم الذين جنوا على أنفسهم : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف :٤٩] فالله لا يعاقب الناس بشيء لم يفعلوه : إذ أن سنة الله تعالى أن ينزل بهم العقاب بما كسبت أيديهم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ [الروم : ٤١] ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] وهذا ما قدّره الله في الكون أن يرسم الإنسان مصيره بيديه وبأعماله ، فيُجرى عليه أقداره من خلال أعماله وتصرفاته التي يستحق بها النعمة أو العقوبة : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] فالإنسان يستطيع أن يجلب على نفسه النعمة ويستطيع أن يجلب على نفسه النقمة .

* * *

﴿ هُوَ الَّذى يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحَمْده وَالْمَلائكَةُ منْ خيفَته ، وَيُرسلُ الصَّوَاعقَ فَيُصيبُ بهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادلُونَ فى اللَّه ، وَهُوَ شَديدُ الْمحَال * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذينَ يَدْعُونَ منْ دُونه لا يَسْتَجيبُونَ لَهُم بشَىْءٍ إلاَّ كَبَاسط كَفَّيْه إلَى الْمَاء لَيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ ببَالغه ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافرِين إلاَّ فى ضَلال * ولِلَّه يَسْجُدُ مَنْ فى السَّمَاوَات وَالأَرْض طَوْعًا وكَرْهًا وَظلالُهُمْ بالْغُدُوِّ وَالآصَال * قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَاوَات وَالأَرْض ، قُل اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونه أَوْليَاءَ لا يَمْلكُونَ لأَنفُسهمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوى الأَعْمَى وَالْبَصيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا للَّه شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهمْ ، قُل اللَّهُ خَالقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

[الرعد : ١٢ – ١٦]

ظاهرة البرق آية من آيات الله :

هذه الآيات تتمة للشوط الذى يعرض لنا آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، وإن كان الذين كفروا قد طلبوا آية واحدة من النبى ﷺ وقالوا : ﴿ لَوْلا أُنزلَ عَلَيْه آيَةٌ مِّنْ رَّبِّه ﴾ فإنهم بذلك قد دللوا على عماهم ، فأين هم من آيات الله تعالى المبثوثة من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن بين أيديهم ومن خلفهم ؟ وهم فى هذا العراء المكشوف – خصوصاً فى بلاد مثل بلاد العرب – يتعايشون مع الطبيعة لا يعيشون فى علب مغلقة ، كما نعيش نحن فى بيوت مغلقة ، إنهم يتعاملون مع الطبيعة العارية ، يرون الظواهر الكونية بأعينهم ،ويسمعونها بآذانهم ، ويتجاوبون معها بفطرهم وقلوبهم،ولذلك يعرض الله تعالى عليهم هذه الظواهر الطبيعية : ﴿ هُوَ الَّذى يُريكُمُ الْبَرْقَ خوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحَمْده وَالْمَلائكَةُ منْ خيفَته ، وَيُرْسلُ الصَّوَاعقَ فَيُصيبُ بهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادلُونَ فى اللَّه ، وَهُوَ شَديدُ الْمحَال ﴾ هو الذى يريكم هذه الظواهر ترونها بأعينكم مثل ظاهرة البرق ، وتسمعونها بآذانكم مثل ظاهرة الرعد ، فالبرق يريكموه ؛ ليخيفكم ويطمعكم ، هذا الضوء اللامع الساطع الخاطف ، الذى يبلغ من شدته أحياناً أن يكاد يذهب الأبصار

كما قال الله تعالى :﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِه يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾[النور : ٤٣] وكما قال : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم ﴾[البقرة : ٢٠].

هذه الظواهر يريكموها الله تعالى خوفًا وطمعًا ؛ لتخافوا وتطمعوا ، لتنقادوا إليه بالرغب والرهب ، إذا رأيتم البرق خفتم من سطوته ونقمته ، وطمعتم فى فضله ورحمته ، خفتم من الصواعق تنزل عليكم ، وطمعتم فى المطر يغيثكم الله به ، أو خفتم أن ينزل الماء مدرارًا فياضًا أكثر مما تبتغون فيهلككم ويغرقكم ، كما فى السيول المدمرة والفيضانات الهائلة ، فالشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ،ولذا كان من أدعية الصحابة رضوان الله عليهم فى الاستسقاء « اللهم حوالينا ولا علينا » .

﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾خوفًا أن يزداد الأمر فيكون من ورائه الهلاك ، وطمعًا أن ينزل بالقدر الذى يصلح ولا يفسد ، وينفع ولا يضر ، ويحيى ولا يميت ، والإنسان يقابل بين هاتين النزعتين:الخوف والطمع، أو الرغب والرهب ، حتى يظل متعاملاً مع الله تعالى راغبًا راهبًا ، خائفًا طامعًا : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الأعراف:٥٦] ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[السجدة : ١٦] خوفًا من عذابه وطمعًا فى ثوابه ، خوفًا من عقابه وعدله ، وطمعًا فى رحمته وفضله ، وهنا فى هذه السورة كما فى سورة الروم حينما سرد الله علينا مجموعة من آياته فى الكون : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[الروم : ٢٢] إلى أن قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الروم : ٢٤] فآية البرق إنما هى للخوف والطمع .

السحاب ومم يتكون ؟ :

﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى المحملة بالماء تنزل منها الأمطار تحيى الأرض بعد موتها وتروى الظمأى ،وتؤدى للناس حاجاتهم من الحياة﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[الأنبياء : ٣٠] والله سبحانه يقول : ﴿ حَتَّى إِذَا

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف : ٥٧] فالله هو الذى ينشىء هذه السحاب الثقال التى تحملت بأبخرة الماء وتصاعدت ، ثم تنزل مطرًا إذا أذن الله لها .

ذكر بعض المفسرين أن السحاب عبارة عن أبخرة صعدت من الأرض وتكونت فى الجو ، حتى إذا وصلت إلى درجة برودة معينة نزلت ، وأنكر هذا عليهم مفسرون آخرون وقالوا : إن هذا من كلام الفلاسفة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى ينشىء السحاب الثقال ! ونقول : ليس كل كلام الفلاسفة باطلاً ، بل فيه الحق والباطل ، فيؤخذ منه الحق ويترك الباطل ، وما قاله هؤلاء المفسرون قد اثبته العلم الحديث ، ويدرسه التلاميذ فى المدارس ، وقد أصبحنا نركب الطائرات وتعلو بنا حتى نرى السحاب من تحتنا ، وفوقه الشمس ساطعة .

وليس معنى أن الله ينشىء السحاب أنه لا ينشئه بأسباب ، فالله ينشىء الأشياء ويخلقها وفق سنن معينة ، وبأسباب ربط بها هذا الكون كله ، فهذا الكون مرتبط بشبكة من الأسباب والمسببات ،وليس هناك أى نزاع بين ما يقرره العلم وما جاء به الدين فى هذه الناحية ، والعرب قديمًا أشاروا إلى أن السحاب أصله من الماء :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل علـــــيه لأنه من مائه

تسبيح الرعد بحمد الله وكيف يكون ؟ :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد مسبّح بحمد الله ينزّه الله تعالى عن كل نقص ، وعن كل مالا يليق بذاته ، كما أنه يحمده سبحانه وتعالى ويصفه بالكمال ، فكيف يسبّح الرعد ؟ هل له عقل حتى يسبِّح ؟ قال بعض المفسرين : المراد سامعو الرعد فهناك مضاف محذوف ، وهذا تأول وتكلّف ، فالقرآن يؤكد أن الكون كله يسبح بحمد الله تبارك وتعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الحشر :١، الصف:١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾[التغابن : ١] ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ [النور : ٤١] فما فى السموات وما فى الأرض يسبح بحمد الله ، « وما » لغير العقلاء ، كما أن من فى السموات والأرض يسبح بحمد الله ، و « من » للعقلاء ، أى أن الكون كله ، عقلاءه وغير عقلائه ، يسبح بحمد الله تبارك وتعالى ، فهى ظاهرة عامة ولذا فالله تعالى يقول : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء : ٤٤] فالتسبيح عام ولا يصح أن يقال : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ» أى من فى السماوات السبع والأرض، وإلا فلم يجز أن يأتى بعدها «ومن فيهن » ، وهذا يعنى أن السموات ذاتها تسبح ، والأرض تسبح بحمد الله ، ومن فيهن من العقلاء ، الملائكة فى السموات ، والإنس والجن فى الأرض يسبحون ، وكل ما فى الكون مسبح بحمد الله .

والتسبيح الذى تسبحه هذه المخلوقات غير العاقلة غير معروف لنا ، ولا ندرى أى نوع من التسبيح هو ؟ فالبعض يقول : لعل التسبيح بلسان الحال ، والعرب تقول : لسان الحال أفصح من لسان المقال ، فهناك كلام بلسان الحال وهناك كلام بلسان المقال ، فهذه المخلوقات تسبح ، أى تدل على الله عزّ وجلّ ، وهذه الظواهر دالة على خالقها ومنشئها ومبدعها ، وهذا هو تسبيحها وإن لم تتكلم بلسان ذلق ، والبعض الآخر يقول : إنها تسبّح ولكن نحن لا نعرف والله تعالى يقول : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أى لا ندرى كنه هذا التسبيح ، والحقيقة التى نؤمن بها أن هذا الكون كلّه مسبّح بحمد ربه سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١] .

وهذا الرعد يسبح بحمد الله ، وهناك بعض الروايات تقول:إن الرعد ملك من الملائكة (١) ، ولكن ليس فى الصحيحين شىء من هذا ،والسياق القرآنى يدل على غير هذا ، وفى هذه السورة : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ .

خيفَته ﴾ والأصل فى العطف أن يقتضى المغايرة ، فالملائكة إذن شيء غير الرعد وليس الرعد ملكًا كما يقال ،والقرآن يدلنا على أن الظواهر والقوى غير العاقلة فى هذا الكون تسبح بحمد الله ، والقوى العاقلة الملائكة والجن والإنس تسبح ، فالجميع يسبح ، وهذا دليل علي أن الرعد هو هذه الظاهرة التى نسمع صوتها عند احتكاك السحب بعضها ببعض على حسب ما يفسر الفيزيائيون والطبيعيون هذه الظاهرة .

﴿ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِه ﴾ والملائكة تسبحه أيضًا سبحانه وتعالى خشية له وإجلالاً له فهم كما قال الله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] فهم يسبحون دائمًا .

معنى إرسال الصواعق :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ هذه النيران النازلة من السماء ، لتحرق وتدمر وتهلك، يرسلها الله سبحانه وتعالى على من يشاء ويصيب بها من يشاء ، كما أصاب بها قوم عاد وثمود أخذتهم الصاعقة : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : ١٧] وكما حدث لقوم موسى ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم ﴾ [النساء : ١٥٣] . فهذه الصواعق يرسلها الله عز وجل على من يشاء من عباده ؛ عقابًا لهم وانتقامًا منهم ، وهو صاحب هذا الكون يسيره كما يشاء ، قد يخرق الأسباب التى يسير عليها هذا الكون ويخرق السنن ؛ لأنه هو المسيطر على ذلك كله ، وقديسيّر الأشياء فى وقت معين ، وفى زمان معين ، لحكمة معينة ، هو الذى يزلزل الأرض زلزالها ، وهو الذى يوقد الزلازل الخامدة ، وينشطها بعد خمول ، ويحركها بعد سكون ، فهذا أمره وهذه إرادته فى وقت معين ، وفى مكان معين ،ولقوم معينين ، فهذه الظواهر الكونية فى قبضة الله تعالى يستخدمها كما يشاء لما يشاء مع من يشاء ولذلك قال هنا : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ .

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ومع هذا فهؤلاء الناس يجادلون فى الله ، يجادلون فى وحدانية الله ، يجادلون فى قدرة الله ، يقولون كما حكت عنهم السورة : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ويماحكون فى طلب الآيات ويقولون : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾ والآيات من حولهم تسدّ عين الشمس ، وكم رأوا من الآيات فأعرضوا، فهؤلاء رغم هذه الظواهر الناطقة من حولهم يجادلون فى الله ، كالذين حكى الله عنهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الحج : ٨ ، ٩] من المتكبرين والمختالين والفخورين بأنفسهم .

وقد وردت روايات « أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : اذهب فادعه لى فقال : يا رسول الله إنه أعتى من ذلك . قال : اذهب فادعه لى قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله قال : وما الله أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ قال : فرجع إلى رسول الله فأخبره وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال لى كذا وكذا فقال : ارجع إليه الثانية فادعه فرجع إليه فعاد عليه مثل الكلام الأول فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره فقال : ارجع إليه فرجع الثالثة فأعاد عليه ذلك الكلام فبينا هو يكلمنى إذ بُعثت إليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .. ﴾ (١) ، ولكن العبرة بعموم الآية ، فالآية تعجّب من شأن هؤلاء الناس يجادلون فى الله برغم ما رأوا من الآيات الناصعة الساطعة القاطعة .

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ الله أشد مكرًا وأسرع مكرًا من هؤلاء ،يمكر بهم من حيث لا يشعرون فهو شديد العقوبة والمحال ، والتدبير الذى يوصل إليهم

---

(١) تروى فى أسباب النزول وقد ذكرها الواحدى فى أسباب النزول عن أنس بن مالك ص ٢٠٤ وذكرها ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ عن أبى يعلى الموصلى من حديث أنس بن مالك ، ورواه ابن جرير من حديث على بن أبى يسار ، وروى نحوه البزار وأبو بكر بن عياش ، وروى أيضًا فى أسباب نزول ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ قصة عامر بن الطفيل وإربد بن قيس انظر الواحدى أسباب النزول ص ٢٠٥ .

ما يكرهون من حيث لا يشعرون ، وقد ورد على لسان عبد المطلب حينما جاء أبرهة الأشرم إلى مكة وأراد أن يهدم البيت الحرام قال :

لاهُمّ إن العبد يمنع رحلـــه فامنع رحالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن محالهم وعديدهـــم يومًا محالك

أى لا يغلبن مكرهم مكرك ولا كيدهم كيدك ولا قوتهم قوتك .

الله وحده له دعوة الحق :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الله سبحانه وتعالى صاحب هذه الآيات الذى يرى الناس البرق خوفًا وطمعًا ، وينشىء السحاب الثقال ،والذى يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والذى يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، تبارك وتعالى الشديد المحال له دعوة الحق ، له وحده لا لغيره ، وهذا التقديم فى « له » أفاد انفراده سبحانه بدعوة الحق ، فليست لغيره ، هو وحده الذى يُدعَى بحق ، وهذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، فهو الذى يدعى بحق فيجيب من دعاه ؛ لأنه وحده القادر على إجابة الداعى ، يستطيع أن يعطى كل من دعا سؤاله ويحقق طلبه ؛ لأن الخزائن كلها بيده .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾أما غيره فدعوته باطلة ، إذا دُعى إنما يدعى بباطل ، والذين يدعون من دون الله يدعون من لا يملك شيئًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٤] يدعون من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا .

وكلمة الدعاء فى القرآن الكريم تحمل معنى العبادة ، فكثيرًا ما يعبّر عن العبادة بالدعاء ، وقد يقصد منها السؤال والطلب ، إنما عبّر عن العبادة بالدعاء ؛ لأن الدعاء مخّ العبادة ،وروح العبادة هى التضرع والابتهال والشعور بالحاجة إلى المدعو والتعبير عن ذلك ،وبسط أكف الضراعة والذل إليه ، وليست روح العبادة هى هذه الرسوم والأشكال ، فالعبادة الحقيقية يحياها الإنسان حينما يدعو دعاء المضطر ، ومن هنا يجيب الله تعالى المشركين إذا دَعَوْا فى ساعة

العسرة والشدة حينما تحيط براكبى السفينة الأمواج من كل مكان ، ويظنون أنهم قد أحيط بهم ، وتضطرب بهم السفينة ، وتتأرجح ويصبح الموت حولهم ، هنالك يخلصون الدعاء كما حكى القرآن: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾[يونس: ٢٢ ، العنكبوت : ٦٥ ، لقمان : ٣٢] ففى هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة وذاب الطلاء الكاذب الذى غَشَّى فطرهم، ولم يذكروا هبل ولا اللات والعزى ، بل قالوا : يا رب ! وهنا يستجيب الله لهم ، فحقيقة العبادة وروحها ومخها كما ورد فى حديث ضعيف هو الدعاء ،وجاء فى الحديث الذى صححه الترمذى «الدعاء هو العبادة»(١). ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠] ومعنى (عن عبادتى)هنا: أى عن دعائى ، فالسياق يقتضى هذا ، فالدعاء هو العبادة .

الذين يدعون غير الله :

ومن هنا فالذين يَدْعون من دون الله ، أى يَعبُدون من دون الله ، أو يدعُون آلهتهم المزعومة – بالفعل – أن تجلب لهم النفع ، أو تدفع عنهم السوء والضرّ ، أو تحقق لهم الخيرات ، وتدرأ عنهم الشرور ، أو تنصرهم على عدوهم ، أو تشفيهم من أمراضهم .

هؤلاء ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ لا تستجيب هذه الآلهة وهذه الأصنام وهذه الأوثان المعبودة لمن يدعوها ويعبدها بشىء ، إلا كاستجابة من يبسط كفيه ليصل إلى الماء ، ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، إما لأن الماء بعيد كأن يكون فى بئر ، وهو يبسط كفيه إلى الماء ، ولكن القاع بعيد ، فلا يستطيع أن يصل إلى الماء ، ولا يستطيع أن يصل إلى فيه ، وإما لأنه يدعو الماء فيبسط كفيه ويقول : أيها الماء تعال إلى فىّ ، فكأنه ينادى الماء ويخاطبه ليبلغ فاه ، والماء جماد لا يعقل ولا يسمع ، فلن يتحرك إليه

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ عن النعمان ابن بشير رضى الله عنه ولفظه : « إن الدعاء هو العبادة » ورواه الترمذى فى كتاب التفسير وقال : حسن صحيح ، كما رواه النسائى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير وأبو داود وغيرهم .

ولن يصل إلى فمه ، وهذا هو شأن الذين يدعون آلهتهم من دون الله ، سواء كانت هذه الآلهة أوثانًا أم أحجارًا أم أشجارًا أم أبقارًا أم أنهارًا أم جبالاً .

﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ فادعوا ما شئتم هذه الآلهة المزعومة ، فلن تلبى طلبكم ؛ لأنها عاجزة كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣ ، ١٤] فهذا هو شأن تلك الآلهة المزعومة وشأن من يدعونها .

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ فى ضياع ،وفى ذهاب ؛ لأنه دعاء باطل ، يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] من أضلّ من هذا ؟! إنه دعاء ضائع هباء : أن يدعو الإنسان من لا يستجيب له فى الدنيا والآخرة،وقد ذكر لنا القرآن من أحوال أهل النار : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر : ٤٩ ، ٥٠] وهذه حقيقة فدعاء الكافرين ضائع ضال ذاهب لا جدوى منه ؛ لأنه دعاء من لا يستجيب له .

سجود الكون لله :

ثم قرر القرآن حقيقة أخرى مكملة لحقيقة التسبيح ، تظهر لنا أيضًا صفحة من صفحات هذا الكون ، وتصور الإسلام لهذا الكون ، فهذا الكون فى التصور الإسلامى كون مسبح بحمد الله ، ساجد لله سبحانه وتعالى ولذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ . فكل من فى السماوات والأرض يسجد لله طائعًا كأهل الإيمان ، أو كارهًا كغير المؤمنين ، وهناك من يسجد سجود اختيار شأن المؤمنين من بنى آدم ومن الجن ومن الملائكة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] فالملائكة يسجدون ، والمؤمنون من